ويبدو أن العلوي قد انساق وراء ابن الأثير في هذا المقياس ؛ ولهذا عاد مرة أخرى وطالب بتحكيم الذوق ؛ لأنه قد تتوالى ضمتان وهو غير ثقيل ، كقوله تعالى : ﴿ في ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَعَلوهُ في الزُّبُرِ ﴾ [١]

ولعل إحساس ابن الأثير بعدم الدقَّة في هذا المقياس هو الذي جعله يقبل قول أبي تمام :

نَفَسٌ يَحُثُّهُ نَفَسُ ... وَدُموعٌ لَيْسَ تَحْتَبِسُ
وَمَغَانٍ لِلْكَرى دُثُرٌ ... عُطُلٌ مِنْ عَهْدِهِ دُرُسُ
شَهَرَتْ ما كُنْتُ أَكْتُمُهُ ... ناطِقاتٌ بِالهَوى خُرُسُ

فقد وردت في هذه الأبيات ألفاظ أربعة مضمومات كلها ، وهي مع ذلك حسنة لا ثقل بها ، ولا ينبو عنها السمع [٢] .

أما التنوخي فقد حاول أن يقدِّم قاعدة عامة بالنسبة لمستويات الصوت في الخفة والثقل ، وجعل المسألة نسبية أكثر منها قاعدة مطلقة ، « فالحروف منها ما هو خفيف ومنها ما هو ثقيل ، ومنها ما هو خفيف بالنسبة إلى شيء وثقيل بالنسبة إلى شيء آخر . فأخف الحروف حروف المد واللين ، وهي : الألف والياء والواو . والواو والألف أخف من الياء ، والياء أخف من الواو ، والحرف الساكن أخف من المتحرِّك ، والمفتوح أخف من المكسور ، والمكسور أخف من المضموم ، والحرف إذا انكسر ثقل ، والانتقال من الواو إلى الياء ثقيل ، والانتقال من الياء إلى الواو أثقل منه ، والضمة والكسرة

---

(١) العلوي : الطراز ، ج ١ ، ص ١١٠ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .